دوافع الكتابة التاريخية

والآراء التاريخية التي تنطوي عليها مؤلفات المؤرخين الأولين

إن العوامل التي أدت إلى الكتابة التاريخية عند العرب تتصل بالتطورات الثقافية من جهة وبالتيارات والاتجاهات العامة في المجتمع العربي من جهة ثانية.

ونلاحظ مبدئياً أن اهتمام العرب قبل الإسلام بالأيام وبالأنساب، وروايتهم لما يتعلق بها من أخبار وشعر يتصل بالآراء الاجتماعية السائدة لديهم حول الحسب والنسب، ومن المنتظر أن تكون الروايات شفوية كما يتناسب الوضع الثقافي السائد. وكانت القصص والأخبار التي تروى ملكاً مشتركاً للعائلة أو القبيلة، تتداول في الوسط الاجتماعي، ولم تكن اختصاص الأفراد. وكانت تؤلف جزءاً من الثقافة العامة. وقد استمر هذا الاهتمام بعد ظهور الإسلام.

وجاء الإسلام بفكرة «الأمة»، وقد تركزت هذه الفكرة في المدينة، ثم بدأت تستقر بصورة تدريجية في العراق. ودفع الإسلام بالقبائل إلى الاستقرار في الأمصار، وشجع على إدخال أوليات الكتابة إلى الحياة الثقافية.

وقد بدأت الدراسات التاريخية عند العرب في مدرستين مستقلتين، المدرسة العراقية في الكوفة والبصرة والمدرسة الحجازية في المدينة. وكان لكل منهما دوافع أدت إلى نشأتها ونموها، ولكل آراؤها التاريخية.

ففي العراق كانت العوامل التالية مسؤولة عن نشأة الدراسات التاريخية: فقد استمر الاهتمام القديم بمآثر القبيلة وبأمجادها الحربية، وظهرت تدريجياً عصبية لدى القبائل للمصر الذي استقروا فيه وتبينت في ولائهم له وهذه تتصل بصورة وثيقة بمسألة الفتح تمسك القبائل بحقها في التمتع بموارد البلاد التي فتحوها، أو بتعبير أبسط حق القبائل العراقية في العراق، كما تتصل هذه العصبية بشعور أهل العراق الذين كانت لهم رئاسة العالم الإسلامي في زمن الخليفة الرابع، بأنهم أجدر بالصدارة من غيرهم.

وهناك مسألة الإمامة أو الخلافة وظهور الأحزاب السياسية. فنلاحظ أن الكثير من العراقيين يشعرون -لأسباب تاريخية- بأن قضية العراق تتصل بالقضية العلوية. وهناك فكرة الدولة أو مفهوم الدولة بالشكل الذي عرضه الأمويون وبشروا به والذي لقي معارضة من الأمصار ومن القبائل.

ومن ناحية ثانية تكوَّن لدى العرب شعور بأهميتهم، وأدراك بأنهم أصحاب رسالة عالمية في الإسلام. وهذا الشعور يتصل بتكوين الإمبراطورية العربية الإسلامية، وقد أثر على نظرة العرب إلى الموالي.

ثم إن فكرة الأمة ظهر أثرها في جعل الاهتمام بالأخبار والقصص يتعدى القبيلة إلى المجتمع وبذلك فتحت الباب للدراسة التاريخية، كما أن ميول العراقيين ومصالحهم تجاه السياسة الأموية كانت عاملاً آخر في توجيه الدراسة التاريخية.

كل هذه المسائل تظهر في الدراسة التاريخية، ويظهر دورها في العناية ببعض الحوادث مثل الردة والفتوحات والشورى والفتنة وما اتصل بها من أحداث كوقعتي الجمل وصفين.

وقد عبرت كتب الإخباريين، وهم المؤرخون الأولون في العراق، عن الأراء السائدة في العراق حول المسائل المذكورة. وهكذا نجد سيف بن عمر يتناول «الردة» و«الفتوحات». وأخباره عن الفتوحات تظهر أمجاد القبائل بشكل يغطي لحد كبير على دورها في الردة، كما أن الصورة التي يعطيها عن الردة ليست قائمة كما يتوقع. وتناول أبو مخنف الردة، والفتوحات، والشورى، والفتنة، وصفين، ثم شؤون العراق حتى نهاية العصر الأموي. وينعكس في أخباره الولاء للعراق (أو العصبية للمصر)، كما أنه يظهر صحة قضية الإمام علي ويضع معاوية وأتباعه في الخطأ. وهو يربط قضية الإمام علي بقضية العراق ويجعلها قضية واحدة -يعمل ذلك دون أن ينتسب إلى الحزب العلوي. [فمثلاً يروي: أدركت الناس وهم يقولون: إن أول ذل دخل الكوفة موت الحسين بن علي وقتل حجر بن عدي ودعوة زياد. الطبري ج٢ ص ١٤٥]. كما أنه يظهر الأمجاد القبلية في أخباره عن الفتوحات وعن صفين.

ويعطي نصر بن مزاحم في كتابة «صفين» وجهة شيعية، ويبدو في أخباره أثر الحزبية بجلاء، كما أنه يعبر عن المفاخر القبلية بوضوح.

ويحتمل أن عوانة بن الحكم كان عثمانياً في ميوله، أي أنه كان أقرب إلى الأمويين، فنراه يقدم روايات أموية، ونجده يبدي بعض التسامح حتى مع يزيد، إذ يروي عن سكينة قولها: ما رأينا رجلاً كافراً بالله خيراً من يزيد[1]. ومع أنه يعرض رأي جابر بن عبدالله عن بيعة معاوية بأنها «بيعة ضلالة»، إلا أنه يظهر الصراع خلال الفتنة على أنه نزاع بين شيعة عثمان وشيعة علي. ويفسح عوانة المجال في أخباره لوجهة النظر الأموية في التأكيد على القضاء والقدر. يورد عوانة رواية تذكر يزيد بن معاوية يخاطب علياً بن الحسين اثر فاجعة كربلاء

ويبين له أن والده لم يتذكر الآية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢) .

وعلى كلٍّ فإن الإخباريين عامة يؤكدون على مسؤولية البشر عن الحوادث ولا يحبذون فكرة الجبر في الشؤون العامة، ونجد في أخبار التوابين مثلاً قوياً لهذا الاتجاه.

ثم إن فكرة الدولة، كما حاول الأمويون تثبيتها، والتأكيد على الطاعة والولاء لرأسها لا تجد التأييد في كتب الإخباريين. بل إننا نجد عطفاً على الثورات والحركات في تآليفهم، أو على الأقل تفسيراً مقبولاً لها.

ونجد الشك في قريش والحسد لمكانتها لما تتمتع به من امتيازات ينعكس في هذه التآليف: [إن قريشاً لا تحتمل هذا ونحوه، وهم أهل حسد . . . إنهم قوم غدر. الطبري ج٢ ص ١٩٥٥ - ٦].

ونلاحظ احتقار القبائل للموالي جلياً في بعض ما كتب، ونجد مثلاً واضحاً لذلك في أخبار ثورة المختار.

وما جاءت نهاية القرن الثاني للهجرة حتى نلاحظ تطورات أخرى، فالصراع بين العرب والموالي، والاحتكاك بين المسلمين وأهل الذمة، وادعاءات الارستقراطية العربية والصلة بين قريش وبقية القبائل-كل هذه كان لها أثر في

(١) الطبري ج٢ ص ٣٨١ .
(٢) الطبري ج٢ ص ٣٧٨ .

الكتابة التاريخية، وظهرت فكرة الاستمرار الثقافي في تاريخ العرب أيضاً، ثم إن تزايد أهمية الإجماع بمفهومه العام- بالمقابلة لإجماع أهل مصر من الأمصار في السابق - أعطى مجالاً للتعبير العملي عن فكرة تجارب الأمة (أو خبراتها) ووحدة هذه التجارب.

وعلى ضوء ما مر، نجد المدائني يجول في حقل التاريخ العربي كله - سياسياً واجتماعياً وثقافياً - قبل الإسلام وبعده. ورجع هشام بن محمد الكلبي إلى تاريخ الأنبياء، وتناول التاريخ الفارسي، وتاريخ العرب - شماليين وجنوبيين- قبل الإسلام، ثم التاريخ الإسلامي. وعبر عن فكرة عامة وهي وحدة التاريخ وتكامله. ورجع أبو عبيدة إلى الرويات الفارسية، فكتب «أخبار الفرس» و«كتاب الموالي»، وهنا نجد أثر تيار الموالي واضحاً عليه. وكتب الهيثم بن عدي كتاب «التاريخ على السنين» وبذلك أكد على فكرة وحدة تجارب الأمة. أما كتابه «كتاب الأشراف الكبير» فيعبر عن نظرة الأرستقراطية العربية إلى مكانتها في المجتمع الإسلامي ويعبر عن فكرة الوحدة الثقافية في تاريخ العرب.

ونلاحظ أن الإسرائيليات والروايات الفارسية لم تكن موجودة لدى الجيل الأول من الإخباريين، وإنها تسربت بعد ذلك عن طريق أصحابها، كما أننا نرى أن المشاكل العملية والتطورات الثقافية أثرت على الأفكار التاريخية ووسعت أفقها.

وإن عدنا إلى المدينة نرى عاملين أثرا في الدراسات التاريخية: أولهما: دراسة حديث الرسول وسنته، وثانيهما: مبدأ الإجماع الذي كان محليًا -أي إجماع المدينة- أول الأمر، ثم توسع فيما بعد. وهذا أدى إلى دراسة سيرة الرسول وسيرة أتباعه، وإلى دراسة الراشدين ومشاكل «الشورى» و«جمع

القرآن» و«الفتنة» وربما بعض النواحي المتصلة بصدر الدولة الأموية.

أما موضوع «المبتدأ» أو تاريخ الخليقة والأنبياء، فهو موضوع طارئ على الدراسة التاريخية وقد وجد طريقه إليها بتأثير وهب بن منبه بالدرجة الأولى علي بن إسحق، وهذا العنصر الدخيل لم يلق قبولاً في مدرسة المدينة. وإذا كان ابن إسحق تناول المبتدأ، فإن الواقدي تجاهله وعبر بتأكيد عن فكرة وحدة تجارب الأمم وتكاملها -وكان الواقدي معاصراً للمدائني ولهشام بن محمد الكلبي.

وشهد القرن الثالث للهجرة تبادل التأثير في الأفكار والوجهات والأساليب التاريخية بين المدارس والأمصار وخاصة عن طريق الرحلة في طلب العلم. كما أن المبادئ الإسلامية التي تؤثر في الكتابة التاريخية سادت في الأمصار المختلفة بعد أن كانت مهيمنة في المدينة.

فنجد الآن فكرة تكامل النبوات ووحدة الرسالة قد استقرت لدى المؤرخين. ونحس بأثر الحركة العباسية على المؤرخين -مع العلم أن الحركة تنطوي على تفوق التيار الإسلامي على التيار القبلي. ثم إن الحركة الشعوبية أدت إلى التأكيد على الاستمرار الثقافي والوحدة الثقافية في تاريخ العرب. وشعرت الأرستقراطية العربية بالحاجة إلى تبرير وضعها بعد مشاركة الموالي في السلطة. كما أن الفرس زاد وعيهم قوة بعد انتصار العباسيين، ثم إن الإجماع صار إجماعاً عاماً. أما مبدأ حرية الإرادة والاختيار فقد تراجع في الحقلين السياسي والثقافي. وأخيراً، فإن مسرح الدراسات التاريخية تحول من مراكز الأمصار إلى عاصمة الخلافة الكبرى بغداد.

كل هذه العوامل والاتجاهات وجدت التعبير عنها لدى مؤرخي القرن الثالث الهجري. ويكفي في هذه اللمحة أن نعطي فكرة أولية عامة.

فالبلاذري، في كتابه «أنساب الأشراف»، يعبر عن فكرة استمرار التاريخ الإسلامي واتصاله، ناسجاً خيوطه حول الأشراف العرب، وهو بذلك يشير إلى موطن الثقل والأهمية في هذا التاريخ، ويعبر بقوة عن النظرة الاجتماعية لدى الأرستقراطية العربية.

وكتاب «فتوح البلدان» يعبر عن رسالة العرب في الإسلام وعن دورهم التاريخي [هذا فضلاً عن أنه يساعد في تقديم حلول لمشاكل فقهية وإدارية].

أما اليعقوبي فكتب تاريخاً عاماً، تناول القسم الأول منه التاريخ العالمي لفترة قبل الإسلام وأعطى هذا التاريخ معنى دينياً ثقافياً. وتبدو ميوله الشيعية، كما يظهر أثر مهنته ككاتب في القسم الثاني من كتابه الذي وضع كما يبدو لفائدة الكتاب.

ويجمع ابن قتيبة في كتابه «المعارف» بين فكرتين تاريخيتين - فكرة التاريخ العالمي وفكرة الوحدة الثقافية في تاريخ العرب، وذلك ليسد حاجة طبقة الكتاب إلى تاريخ شامل وليجابه الحركة الشعوبية في الحقل الثقافي.

وكتب الدينوري «الأخبار الطوال» وهو تاريخ عالمي يؤكد على دور كل من العرب والفرس و التاريخ، وقدم تفسيراً تاريخياً لاشتراك العرب والفرس في السلطة في العصر العباسي.

وأخيراً جاء الطبري فثبت بصورة نهائية وجهة المحدثين في كتابة التاريخ،

وعبر عن فكرة تكامل الرسالات في التاريخ، وعن فكرة وحدة تجارب الأمة (أو الإجماع). فالتاريخ هو تعبير عن المشيئة الإلهية، وقد كتبه الطبري على هذا الأساس.

فتاريخه هو قرين تفسير، فكما يوضح التفسير إرادة الله في كلامه، يوضح التاريخ إرادة الله في الفعاليات البشرية.

obeikandl.com